أزعة

تهافت الرجال في اتجاه واحد وأصواتهم تعلو، يبدو أن هناك مشكلة ما..، دبّ الرعب في قلبي، كنت ماضِياً في طريقي لأملأ من الصهريج القادم خزّاني المائي، الحرّ شديد.. والكل في نزق، قلة المياه جففت العروق، وألهبت العقل حتى تبخّر.

يبدو أن الشجار محتدم ولا مفرّ من الدخول إلى قلب الحدث، فأنا أريد الاستئثار بحصتي المائية لهذا الأسبوع وأريح كاهلي من همّ الماء، كما أن الفضول شدّني لأعرف مصدر المشكلة،.. آه.. هذه ضريبة سكن المناطق المخالفة، اليومُ فيها عبء ثقيل.. وكأن كل امرئ فيها يحمل على عاتقه يوم البشر جميعهم، بكل تصاريفه وهمومهم، فإذا نام لا يريد أن يفيق، وإذا استيقظ أيضاً لا يريد أن يفيق، في أحلامه يرى أسعار البيوت تلتهب كأشدّ من التهاب الشمس في كبد سماء تموز، وهو يبحث عن بيت يأوي إليه، يبتعد عن مركز المدينة رويداً رويداً، يدخل في تعاريج الأزقّة، يتنحّى عن الشوارع الأنيقة والنظيفة، يهرب من أبنية

كثيرة وهو يشتهيها، لأن ما يشتهيه هو بالنسبة إليه وإلى أمثاله.. للنظر فقط..بل النظر عليه كثير، لأنه سيفسد أخلاقه ويدفعه إلى الاعتراض والتمرّد على واقعه..ومهما تمرّد فسيكون كمن يتخبّط في مستنقع كلّما أراد الخلاص منه عاد ووقع فيه وزاد طينه بلّة..!

البيت في هذه المناطق يسدّ رمق الإيواء.. هذا من بعد الجمعيات والديون، به يبتعد المرء عن المدينة بأسرها ويصبح خارج سربها، وكأنّ أحداً لفظه خارج فمها..!

كنت أحاول الاقتراب من الشجار، وصورة البيوت في ذهني بلا عدادات للمياه أو الكهرباء، حاولت يومها أن أحفظ ماء وجهي فصنّعت خزاناً ضخماً للمياه يكفيني أسبوعاً كاملاً وكل شهر أدفع المبلغ المرقوم تسعيرة قطرة الماء، قديماً قالوا : " مقسوم لا تأكل، وصحيح لا تقسم، وكُلْ حتى تشبع..!!"

اقتربت من الحدث حتى تبيّنت لي معالمه، كان الرجلان يتخاصمان على الأجرة، والرجال من حولهم ما بين مصلح ومحتدم يريد قضاء حاجته من الماء والعودة إلى همومه الأخرى..!

كان الصراخ يعلو، ودائرة الشجار تتفاقم، وشررها يتطاير على الجميع.. منهم من دخل في العراك، ومنهم من أقبل ليحضر مشهداً مثيراً.

الرجال من حولي يتكاثرون، حركاتهم العشوائية سلبتني.

شعرت بالضيق يخنقني، وأبنية البيوت تعلو.. وتخالف.. تعلو.. وتخالف.. تخترق السماء.. تتحدى بهشاشتها القوانين.. ما عدت أدري.. من المغلوب..؟!

اشتدّ الحرّ.. ادلهمَّت الغيوم فوق السماء.. غارت الشمس بكل وهجها، كانت الأصوات تتصاعد وتزيد من احتقان الغيوم،.. ما بها أنوفهم تكبر.. أنيابهم تطول، أظافرهم تتحول إلى مخالب.. لقد تحوّلوا إلى حيوانات غابة.. نسوا لغة الحوار..تعطّل محرّك العقل.. تعاركوا.. وتعاركوا حتى تلاشوا..

هطل مطر غزير.. غزير.. اعتلت أصوات بهيمية أفق الكون الحضاري.. كان ينتكس في عودٍ إلى القرون الحجرية..!!